الطريقة الصوفية في إسبانيا: تسامح وتقبل للآخر.
ترجمة من اللغة الإسبانية

Sufi Method in Spain: Tolerance and Acceptance of the Other
Translation from Spanish

بوطالب كلثوم*

كلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة محمد الخامس/الرباط، دولة المغرب

****

تاريخ الإرسال:2019/01/04 **تاريخ القبول:2019/01/23** **تاريخ النشر: 31 جانفي 2019**

ملخّص:

تتحدث هذه المقالة عن الطريقة الصوفية المعروفة في إسبانيا بالنقشبندية "الإسبانية"، والتي يعتبرها أتباعها النهج الروحي الصوفي للدين الإسلامي.

يتناول المقال بالضبط مجموعة من الصوفية في منطقة ألبوخارا الغرناطية «Alpujarra Granadina»، إضافة إلى مجموعة أخرى بالقرب من كاسيرس« Cáceres ». تحقق هذه الفرقة تجسيداً مهمّاً للتمازج بين الأجناس المختلفة، والثقافات المتنوعة. تؤكد المقالة عموماً على أن معتنقي الإسلام في إسبانيا أن يعتبرون الدين الإسلامي ضامن للطمأنينة والأمل.

واجه هؤلاء الإسبان المعتنقين للإسلام، وللطريقة الصوفية، عدم الرضا والقبول من طرف عائلاتهم، وكان عليهم أن يبينوا لهم أن الإسلام لا يمت بصلة للمرتبطين بالعنف، وللتفسير الحرفي لمعاني القرآن الكريم. كما أنهم خضعوا للمراقبة الأمنية السرية لأجهزة الاستخبارات الأمنية. وهذا معناه أن الإسبان ينظرون للمعتنقين للإسلام نظرة قاسية.

هدف هذه المقالة التأكيد على أن الإسلام هو السلام. وبما أن جل الصوفيين في إسبانيا هم إسبان، كما هو الحال في "بيادي نوبيا دي لا فيرا"، فإن هؤلاء يمكنهم الإستفادة من الدراسات التي تؤكد أن مذهبا صوفياً كان موجوداً قبل الإسلام. لكن الصوفي في إسبانيا يؤكد على أن عقيدته الروحية هي جزء لا يتجزأ من الدين الإسلامي الذي لا يختلف عن الديانات الأخرى في شيء. إنه دين المحبة: ربط الصلة بالله، والسبيل إلى ذلك الحب اللامشروط

كلمات مفاتيح:التسامح- الدين الإسلامي- التصوّف- الرحمة- تقبّل الآخر- الاختلاف رحمة.

Abstract:

This article talks about the Sufi method known in Spain as "Spanish", which its followers consider to be the mystical spiritual approach of the Islamic religion.

The article deals with a group of Sufis in the Alpujarra Granadina region, as well as in another group near Caceres. Cáceres is an important embodiment of the fusion of different races and cultures. The article generally emphasizes that the adherents of Islam in Spain consider Islam to be a guarantee of tranquility and hope.

These Spanish converts to Islam, and the Sufi method, faced dissatisfaction and acceptance from their families. They had to show them that Islam had nothing to do with those who were linked to violence and to literal interpretation of the meanings of the Holy Quran. They were also subjected to secret security surveillance by security intelligence services. This means that the Spanish look to the oppressed of Islam a harsh look.

The goal of this article is to emphasize that Islam is peace. Since most Sufis in Spain are Spaniards, as in the case of the "Bayadi Nuweiba de la Vera", they can benefit from studies that confirm that the doctrine of Sofia existed before Islam. But the mystic in Spain emphasizes that his spiritual faith is an integral part of the Islamic religion which is no different from other religions in anything. It is the religion of love: the connection to God, and the path to that unconditional love.

Keywords:

Tolerance - Islamic religion - Sufism - Mercy - Acceptance of the other - difference mercy.

---

*باحثة في مختبر الدراسات المقارنة، كلية الآداب والعلوم amira.samy29@yahoo.com.
الإنسانية، جامعة محمد الخامس/الرباط، دولة المغرب

يعيش في إسبانيا قرابة ألفٍ ومائتي صوفي نقشبندي. وتعد **النقشبندية** النهج الروحي الصوفي للدين الإسلامي، وتوجد مجموعة منهم في منطقة **ألبوخارا الغرناطية «Alpujarra Granadina»** ومجموعة أخرى بالقرب من **كاسيرس« Cáceres »**. "إنهم ينظرون إلينا بنظرات قاسية، وبديهي أن الإسلام هو السلام، وهذا ما لا يعمل به الأصوليون" يوضّح **محمد إسكندر**.

تتوفر منطقة **أورخيفا «Órgiva»**، بالكاد على ستة ألاف نسمة، وتضم ثمانٍ وستين جنسية مختلفة. تتميز منطقة أورخيفا بروعة ثقافتها المتعددة حتى وقتنا الحاضر، الملقبة بمنهاتن الأندلس الصغيرة، عاصمة ألبوخارا الغرناطية **Alpujarra» «Granadina**، ومكان سقوط آخر ملوك الأندلس المسلمين، الملقب **بأبي عبد الله محمد الثاني عشر**، وأرض المغاربة، ومهد الأرثودوكس. وتتميز هذه المنطقة بروعة ثقافتها المتعددة حتى وقتنا الحاضر.

ولعل أجمل تجسيد لهذا التمازج بين الأجناس المختلفة، يكمن في مقهى البركة التي يديرها قاسم ذو الواحد والأربعين سنة، وقد اعتنق الإسلام في هذا المكان الدافئ، الذي يعد رمزا لهدوء بابل أورخيفا، حيث يتعايش الفضاء مع المتقاعدين، والفيلسوف التائه، والنبي العلماني، والهي الذي يكتشف في شاي النعناع حنيناً مفقودا. « لا يُمنع أحد من الدخول هنا » يضيف قاسم، وتعتبر مقهى البركة قدس الأقداس، حيث يمنع تقديم الكحول إلى المسلمين في إسبانيا. ويتعلق الأمر بالإسبان الذين لم يكتفوا فقط باعتناق الإسلام، بل توغلوا في النهج الروحي الصوفي، وفي حياة التأمل والسلام.

من جهة أخرى يضيف قاسم: "عندما أخبرت عائلتي أنني سأعتنق الإسلام وافقت على ذلك، لكن أبي تضايق كثيراً. وكما هو معروف فإن الخنزير والكحول محرمان في الإسلام. وقد كان لدينا مطعم عائلي في بلباو، وكنت أنا من يتذوق النبيذ، فكيف يمكن لي أن أكون مسلماً وأنا أتذوق النبيذ وأقطع لحم الخنزير؟ لذلك تركت العمل في مطعم العائلة، وأنشأت مشروعي الخاص. أنا أتبع الطريقة الصوفية منذ إحدى عشرة سنة، وإن هذا لمن أجمل الأشياء التي حدثت في حياتي".

يؤكد معتنقو الإسلام أن هذا الدين جلب لهم الطمأنينة والأمل، لكن لم يكن ذلك سهلاً، مع استثناءات قليلة. إن جلّ هؤلاء واجهوا عدم الرضا والقبول من طرف عائلاتهم، وكان عليهم أن يشرحوا لهم أن الإسلام لا يمت بصلة للسلفيين والجهاديين،

المرتبطين بالعنف والتفسير الحرفي لمعاني القرآن الكريم، ولهذا، وحتى وقت قريب كان المتصوفة المتبِّعون للطريقة الصوفية تحت المراقبة السرية لاستخبارات الأجهزة الأمنية. "يتم استدعاؤنا إلى مكان لا يمكنني ذكر اسمه، ثم يسألوننا من نحن؟ وماذا نفعل؟ وما علاقتنا بالجماعات الإسلامية؟" يحكي **عمر إبراهيم (رافاييل مارتن سابقاً)** وبعد مدة أدركوا أننا فقط نصلي ونردد التراتيل والأناشيد الدينية، ومع ذلك فما زال البعض لم يقتنع بعد.

ألبوخارا هي البلدة التي تضم أكبر تجمع للنقشبندية الصوفية الإسبانية، وتضم ثمانية وستين جنسية، وهناك عدد كبير من الإسبان الذين يتبعون الطريقة النقشبندية الصوفية، التي يعود تاريخها إلى زمن أبي بكر الصديق، خليفة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، يقول **عمر (فيلبي ماركاراتي سابقا)** ذو الثلاثة والستين من عمره - الذي عينه **الشيخ ناظم** أميرا- إن الطريقة الصوفية شبيهة بمركز أو مستشفى روحي، ويعتبر ناظم شيخ الصوفيين -المعلم الكبير- نفسه صفرا، يقول أنه لن تكون له قيمة إلا إذا وضعه الله في يمينه، ويؤكد ذلك أخوه وخليفته في قيادة النقشبندية.

تضم إسبانيا قرابة ألف ومائتي صوفي نقشبندي، وتعتبر هذه هي المجموعة الأوسع في إسبانيا، إذ تضم خمسة وثلاثين عائلة، وفي أورخيفا تحديدا. وقد عاش عمر هناك قبل أن يهتدي إلى الإسلام، عندما عين أميرا من طرف الشيخ ناظم، فتمكن جميع المسلمين الإسبان من التجمع حول القائد الكتالاني. وتعيش المجموعة الأكثر أهمية في مدينة فيلا نويبا دي لا فيرا «**Villanueva de la vera**» في **كاسيرس**. كما تعتبر بلدة أبوخارا المكان الأكثر ملاءمة للتنمية الروحية والتأمل في الله.

تحت ضوء شتوي، يجتمع مجموعة من الصوفيين حول أشجار الزيتون في الجبال الأورخيفية. يفضل هؤلاء المقربون من الله أداء وظائف مرموقة: مثل الفلاحة، وتربية الماشية والتجارة والحرف اليدوية. وهذا لا يعني أنهم يشكلون جماعة ضيقة، توجد على هامش المجتمع. إنهم لا يستخفون بالأنترنت ولا بالتلفاز ولا حتى بالصحف، كما يدرس أطفالهم بمدارس محلية، ورغم ذلك يتفقون جميعا على حياة البساطة، ويبررون موقفهم انطلاقا من أصل كلمة "الصوفية" المشتقة من كلمة "صوف"، حيث كان الزهاد المسلمون يرتدون الملابس المتواضعة دليلا على زهدهم في الدنيا.

لماذا يعيش الصوفي في العالم دون أن يرتبط بشكل كامل بهذا العالم، ومثال ذلك قول منصور (خوسي كارلس سانتشيس سابقا): "أدعو الله دائما وأنا على سجاد الصلاة "، و

منصور (خوسي كارلس سانتشيس سابقا) من مواليد مدينة مالقا ذو الواحد والأربعين سنة، مجاز في علم النفس. يضيف منصور: "رغم أن ثقافة الأندلس لم تعد موضة، إلا أنه مازال هناك رفض قاطع للمسلم."، وتقول **زوجته بهية (ماريا خوسي بيا سابقا)** من مواليد إشبيلية، وعمرها خمسة و ثلاثون سنة، ومجازة في القانون: " نحن المعتنقون للإسلام ينظرون إلينا نظرة قاسية، والإسلام ليس كما يظن الكثيرون. الإسلام هو السلام. هو طلب حب الله، فإذا كانت نيتك في الحياة هي أن تذوب في الحب الطاهر الذي يتجسد في الله، فإن إسلامك ليس له معنى."، وهذا ما لا تتسامح معه بعض الأوساط الأصولية الإسلامية، التي تريد إلغاء آية الرحمة وتعويضها بالسيف. يقول محمد إسكندر الذي يفضل إخفاء نسبه، والذي عمل في دوريات المراقبة الجمركية، وعمل في التجارة البحرية: "غير إن العمل الذي كنت أقوم به طوال حياتي هو التقرب من الله."

تحتفل جماعة الصوفيين ليلة الخميس بمجالس الذكر المعروفة باسم الحضرة، حيث يتم خلالها ترديد مجموعة من الأناشيد في مديح الله تعالى، مع إيقاعات يصاحبها تحريك الكتف والجسد، تحت ضوء الشموع الخافت. وهذه شعيرة يتقاسمونها وبقية المسلمين، "أما يوم الجمعة فهو يوم مقدس في الإسلام، نقيم فيه صلاة الجمعة وبعدها نجتمع لتناول وجبة الغذاء جماعة. ونقيم كل الصلوات باللغة العربية، حيث يظهر مستوانا في اللغة العربية مع استثناءات قليلة. أما معرفتنا الإسلامية فقد تكونت انطلاقا من قراءاتنا وحواراتنا مع الآخرين ومن خطبة الشيخ، ونعتبر نحن النقشبنديين الأقل ثقافة في صفوف الصوفيين، فنحن نهتم بالقلب أكثر".

يعتبر الصوفيون ضحايا المذاهب الراديكالية الإسلامية بدءًا من السلفيين في مصر وصولا إلى طالبان في باكستان. يقول أمين من مدينة ليون، ذو الخامسة والأربعين سنة،: "عانيت من أزمة نفسية صعبة جرّاء وفاة والدي، وأصبحت بفعل ذلك شيوعياً، لا أرغب في معرفة أي شيء عن الله". ظل صامتاً لبعض الوقت واسترسل قائلاً: "عندما اعتنقت الإسلام أحسست بأنّي عدت إلى الطريق المستقيم، علمني شيخي فن الفشل، بمعنى علمني الانغماس في الحياة والتفكير بالقلب". يضيف أمين: "الإنسان الذي يعمل بكد للوصول إلى هدف في الحياة، قد يكون ربح نفسه، إذ يصبح الذهب والطين سيان بالنسبة إليه، هكذا هي الصوفية".

"مرحبا" كلمة مكتوبة على لافتة خشبية، مثبتة على عمود وسط حقول التبغ والبساتين، وبعض المنازل المتفرقة في ضيعة **"تودال"** «Tudal». وتضم قرية **"بيانويبا دي لا بيرا"** ثاني أكبر مجموعة من الصوفية النقشبندية في إسبانيا بقيادة **الشيخ النحات المعروف على الصعيد العالمي بعبد الواحد (كريستبال مارتن سابق)** .

يستقبل عمر إبراهيم، يوم الخميس، الإخوان في بيته من أجل الإحتفال بالذكر. يقول إبراهيم: "اعتنقت الإسلام منذ ثلاثين سنة، ومنذ ذلك الحين أحس أنني حقا مسيحي. ليس هذا تناقضا، لأن يسوع المسيح نبي محبوب كثيرا في الإسلام، ونحن نؤمن بالقديسين ونبجل قبورهم وآثارهم، وهذا ما يميزنا عن بقية المسلمين. يشرح لنا سبب الألقاب في الصوفية فيقول: "يختار لنا المعلم الاسم العربي، وهذا الاسم الجديد يكون عاكسا لجوهرك ومن تكون، ويجب على المريد أن يعمل ما بوسعه لتحقيق معنى الاسم الجديد الذي يحمله، فاسم "عمر" على سبيل المثال يعني القوة والدعم.

" جل الصوفين في إسبانيا هم إسبان، كما هو الحال في "بيادي نويبا دي لا فيرا. وضمنهم أخ مغربي واحد فقط." يقول جمال الدين (خوان أندريس مولينا) من مدينة مدريد، والذي يعد صورة حقيقية لصفاء ونقاء جمال النقشبندية، بخاتمه ولحيته المهيبة وسترته وسرواله الواسع ذو الأصل العثماني – حيث يسهل حركات الصلاة بتصميمه الواسع- بالإضافة إلى عكازه وعمامته الخضراء وكفنه الذي يغطي الجسد الصوفي العاري.

تلبس النساء كذلك ملابس فضفاضة، وكذا الحجاب لتغطية رؤوسهن، هذا ما تعشقه حواء، (أنا روسا سوتا) من سرقسطة، وأم لتسعة أطفال. تقول: "يجب على المرأة أن ترتدي ملابس محتشمة، وأن تحرص على تغطية الرأس والرقبة. فقد استعدت أنوثتي مع الإسلام." وتؤكد أنها لم تتعرض لأية مضايقات بسبب لباسها المحتشم". أما بالنسبة لمريم سكينة سكوت، مسلمة بالفطرة في أووخيفا، و إذ اعتنق والداها الإسلام منذ اثنين وعشرين سنة، فقد تعرضت لمضايقات بسبب الحجاب في المدرسة. تضيف: "الكل يعرف هناك، أني مسلمة، ولكني لا أتباهى بذلك، فالفكرة السائدة في مجتمعنا هي أن الإسلام دين المتعصبين، والأسوأ من ذلك الفهم السيء للصوفية، هناك من يسألني ما إذا كنت أنتمي إلى طائفة ما، كيف يمكنني أن أقول لهم إن الصوفية هي احترام وحب جميع المخلوقات؟".

عرفت الصوفية في أوروبا **برقصة الدراويش**، التي تحيل على السؤال التالي: "من نكون في الحقيقة؟" يقول **الشيخ عمر ماركاريت**: "يمكننا الإجابة عن هذا السؤال ونحن نبحث عن الله في قلوبنا. فقد استوفت الصوفية كل التعاليم الإسلامية ولكنهالم تتوقف عندها بل تجاوزتها".

يعد الصوفيون ضحية المذاهب الإسلامية الراديكالية كالسلفيين في مصر وليبيا، وطالبان في باكستان، ولكن الصوفية قديمة جدا. وتوجد دراسات تؤكد أن مذهبا صوفيا كان موجودا قبل الاسلام، وحددوا موقعه جغرافيا في خرسان الكبرى والشمال الشرقي لإيران. ومازالت الخلافات العميقة حول أصولها مستمرة، كما تؤكد إحدى النظريات الأكثر انتشارا أن الصوفية تأثرت بالرهبنة المسيحية، والفلسفة الأفلاطونية، والهندوسية والبوذية.

ويعترف الصوفي أن عقيدته الروحية هي جزء لا يتجزأ من الدين الإسلامي الذي لا يختلف عن الديانات الأخرى في شئ، إنه دين المحبة: ربط الصلة بالله، والسبيل إلى ذلك الحب اللامشروط. يقول ابن عربي أشهر المتصوفين:[1]

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي == إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلا كل صـورة == فمرعىً لغزلانٍ وديرٌ لرهـــبانِ
وبيت لأوثانٍ وكعبة طائـــــفٍ == وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قـــرآنِ
أدين بدين الحب أنى توجـهت == ركائبُه فالحب ديني وإيمـــاني.

«Tiflos»، والجائزة العالمية «Gabriel Miro» للقصة القصيرة. وهذا **مصدر المقال:**

فرناندو ألوبسو سانتشيس، الحديث عن الصوفية في إسبانيا هو حديث عن روح الإسلام، صحيفة إلبايس الإلكترونية (El País Semanal) بتاريخ 22يناير2015.

*Fernando Sánchez Alonso ,Conversos sufíes, los místicos del islam, El País Semanal, 22 ENE 2015.

للإطلاع على النص الأصلي الرابط المباشر:

https://elpais.com/elpais/2015/01/21/eps/1421845208_671813.html

* الكاتب فرناندو ألوبسو سانتشيس: ولد في مدريد سنة 1970، وهو عالم لسانيات ومصور محترف، متخصص في التصوير الوثائقي، والتصوير الصحفي. حاز سنة 2013 على الجائزة الوطنية للصحافة المقال من صحيفة إلبايس الإلكترونية (El País Semanal) بتاريخ 22يناير2015.

[1]. مقطع شعري لمحي الدين بن عربي من ديوانه (ديوان ترجمان الأشواق) (المترجمة).